# الفصل الثاني

# مفهوم المسئولية عامة

وفيه مقدمة الفصل ومبحثان:

المبحث الأول:تعريف المسئولية:وفيه تمهيد وأربعة مطالب:

المطلب الأول مفهوم المسئولية لغة

المطلب الثاني:مفهوم المسئولية اصطلاحا

المطلب الثالث:تعريف المسئولية في الفكر الوضعي

المطلب الرابع:معنى المسئولية في الإسلام

المبحث الثاني:شروط تحمل المسئولية:وفيه تمهيد وأربعة مطالب:

المطلب الأول: الإعلام والبيان

المطلب الثاني: الالتزام الشخصي

المطلب الثالث: النية (القصد)

المطلب الرابع: حرية الاختيار

obeikandi.com

## مقدمة الفصل

العلم بحقائق الأشياء والوعي بمعانيها يعد مدخلا أساسيا لتصورها، وقد عني العلماء المسلمون بالألفاظ الشرعية والمصطلحات اللغوية وحرصوا على تحديدها، حيث إن مصدر العلم بمعنى قول الشارع يرجع إلى أمرين: اللغة التي تكلم بها، ومقصود الشارع من الألفاظ، وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني، فإن عامة ضلال أهل البدع كان بهذا السبب، فإنهم يحملون كلام الله ورسوله على ما يدعون أنه دال عليه ولا يكون الأمر كذلك.

ومن الألفاظ والمصطلحات التي يحتاج إلى فهمها الشرعي ومعناه اللغوي وفهم مراد الشارع منها (لفظ المسئولية بصفة عامة) إذ لا بد في فهمه من الرجوع إلى معيار ثابت إذ لو أوكلت القضية إلى البشر لأصبحت نسبية بحسب اختلاف أهوائهم ومشاربهم وانتمائهم، وإتباع الهوى يؤدي إلى اختلاف غير متناه وفساد غير منقض. فثبات المعيار الذي ينظر بواسطته وتفهم الحقائق في ضوئه أمر لا محيد عنه.

obeikandl.com

# المبحث الأول
# تعريف المسئولية
# وفيه أربعة مطالب

**تمهيد:**

سنتناول في هذا المبحث التعريفات المختلفة للمسئولية بأنواعها المتخلفة دون توقف عند المسئولية المجتمعية فقط وذلك من كل جوانبها سواء ف اللغة أو الاصطلاح ومعناها في الإسلام حتى يتضح لنا الطريق من البداية ونتعرف على الدرب أو الطريق التي نسير عليها ونحيط بالموضوع من كل جوانبه.

## المطلب الأول

## مفهوم المسئولية لغة

يقول أهل المنطق: الحكم على الشيء فرع من تصوره. من هذا المنطلق نقوم بتعريف المسئولية في اللغة حتى يمكنا الحكم عليها:

المسئولية مصدر صناعي([1])مأخوذ من مادة (س أ ل) التي تدل على استدعاء معرفة أو ما يؤدّي إلى المعرفة، أو استدعاء مال أو ما يؤدّي إلى المال، قال الراغب: فاستدعاء المعرفة جوابه على اللسان، واليد خليفة له بالكتابة أو الإشارة، واستدعاء المال جوابه على اليد، واللسان خليفة لها إمّا بوعد أو بردّ، والسّؤال للمعرفة يكون تارة للاستعلام، وتارة للتبكيت كما في قوله تعالى: {وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ..}([2])

والسؤال إذا كان للتعريف تعدى إلى المفعول الثاني تارة بنفسه وتارة بالجارّ، تقول سألته كذا، وسألته عن كذا وبكذا، والأكثر «عن»، وإذا كان السّؤال لاستدعاء مال فإنّه يتعدى بنفسه أو بمن، وذلك كما في قول الله تعالى {وَإِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً ...}([3])

وقوله تعالى:{وَسْئَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ}([4])

---

[1] ) معنى المصدر الصناعي: كون الشيء منسوبا إلى أصل الفعل كالحرية والرفاهية ونحوهما، ويصاغ بإضافة ياء مشددة تليها تاء مربوطة.

[2] )سورة التكوير:8.

[3] )سورة الأحزاب: 53.

[4] )سورة النساء:32.



obeikandl.com

يقال: سألته الشيء، وسألته عن الشيء سؤالا، ومسألة والأمر منه اسأل، وقد تخفف همزته فيقال: سال، والأمر منه سل، وقال ابن سيده: والعرب قاطبة تحذف الهمز منه في الأمر فإذا وصلوا بالفاء أو الواو همزوا وكقولك: فاسأل واسأل، ورجل سؤلة: كثير السؤال، وتساءلوا: سأل بعضهم بعضا، وأسألته سؤلته ومسألته، أي قضيت حاجته، وقول الله تعالى: {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ}([1])

قال الزجاج: سؤالهم سؤال توبيخ وتقرير، لإيجاب الحجّة عليهم لأنّ الله- جل ثناؤه- عالم بأعمالهم. أما قوله سبحانه:{فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ}([2])

أي لا يسأل ليعلم ذلك منه، لأنّ الله قد علم أعمالهم، وقال ابن برّيّ: يقال: سألته الشيء بمعنى استعطيته، وسألته عن الشيء استخبرته. وقال ابن الأثير: السؤال في كتاب الله والحديث نوعان:

**أحدهما**: ما كان على وجه التبين والتعلم مما تمس الحاجة إليه فهو مباح أو مندوب، أو مأمور به.

**والآخر**: ما كان على طريق التكلف والتعنت فهو مكروه ومنهي عنه، فكل ما كان من هذا الوجه ووقع السكوت عن جوابه فإنّما هو ردع وزجر للسائل، وإن وقع الجواب عنه، فهو عقوبة وتغليظ، قال ابن منظور: وما جاء في الحديث من أنّه «كره المسائل وعابها» أراد المسائل الدقيقة التي لا يحتاج إليها، وفي حديث الملاعنة: لما سأله عاصم عن أمر من يجد مع أهله رجلا ..»فأظهر النبي صلى الله عليه وسلم الكراهة في ذلك إيثارا لستر العورة، وكراهة لهتك الحرمة، وفي الحديث: أنّه نهى عن كثرة السؤال، قيل هو من هذا، وقيل هو سؤال الناس أموالهم من غير حاجة.([3])

---

[1]) سورة الصافات: 24.

[2]) سورة الرحمن آية: 39.

[3]) مختار الصحاح،المؤلف:محمد بن أبي بكر الرازي، تحقيق: محمود خاطر، الطبعة الأولى، بيروت . لبنان، الناشر:مكتبة لبنان ناشرون – بيروت،سنة الطباعة:1415هـ- 1995م.(ج5/ص 1723)، المفردات للراغب (250)، النهاية في غريب الحديث ،المؤلف: ابن الأثير، تحقيق طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، الطبعة: الأولى،مصر،الناشر: المكتبة الإسلامية،سنة الطباعة: 1385هـ.(ج5/ص295)، ولسان العرب (س أ ل) (3/ 1906) ط. دار المعارف.

ولفظ «المسئولية» من الألفاظ المحدثة التي يراد بها التبعة يقال: أنا بري ء من مسئولية هذا العمل أي من تبعته، وقيل: المسئولية ما يكون به الإنسان مسئولا ومطالبا عن أمور أو أفعال أتاها.

والمسئولية عند أرباب السّياسة: هي الأعمال التي يكون الإنسان مطالبا بها.([1])

## المطلب الثاني

## مفهوم المسئولية اصطلاحا

لقد عرفها الكثير من العلماء لكن التعريف الأقرب إلى منهج البحث هو تعريف الدّكتور محمد عبد الله دراز حيث عرفها بأنها: تعني المسئولية كون الفرد مكلفا بأن يقوم ببعض الأشياء وبأن يقدم عنها حسابا إلى غيره وينتج عن هذا التحديد أنّ فكرة المسئولية تشتمل على علاقة مزدوجة من ناحية الفرد المسئول بأعماله وعلاقته بمن يحكمون على هذه الأعمال، والمسئولية قبل كل شيء هي استعداد فطري، إنّها هذه المقدرة على أن يلزم الإنسان نفسه أولا، والقدرة على أن يفي بعد ذلك بالتزامه بوساطة جهوده الخاصة [(2)] ثم تابع كلامه قائلا:ولا ريب أننا نتكلم عن المسئولية بالمعنى الحقيقي، الذي قد يتفاوت في قوته، وقد يحدث أن يستخدم هذا الاصطلاح بتوسيع دلالته أو إضعافها.ليدل على مجرد تبني العمل. ولو لم يوجد إلزام، ولا إمكانية سؤال أو إجابة فمنذ كان الخالق وحده في هذا العالم، "إلهًا متفردًا"، يتصرف فيه متحكمًا، فإنه بهذا الاعتبار هو الصانع المسئول عن أعماله، بأكمل معاني الكلمة، سبحانه وتعالى..

فلنقتصر إذن على مفهوم المسئولية الإنسانية، التي إن لم تفترض سلفًا فكرة إلزام صارم، فعلى الأقل: الفكرة المعادلة لمثل أعلى، أصطلح عليه مقدمًا، بحيث يرى الإنسان أنه مسئول عنه أمام نفسه.[(3)]

---

[1] )المعجم الوسيط 1/ 413 والمنجد (316)، ومحيط المحيط (390).

[2] ) دستور الأخلاق في القرآن، المؤلف: محمد بن عبد الله دراز (هو الدكتور محمد عبد الله دراز ولد سنة 1894 الميلادي في قرية (محلة دياي) بمصر بمحافظة كفر الشيخ، كان يعرف اللغات المتعددة وحصل على الدكتوراه من جامعة السربون بفرنسا وله مؤلفات كثيرة منها: الأخلاق في القرآن، الدين، النبأ العظيم، المسؤولية في الإسلام توفي سنة 1958.) الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: العاشرة 1418هـ / 1998م، (138).

[3] ) المرجع السابق

وقال الخاقاني: يراد بالمسئولية الشعور بأداء الواجب والإخلاص في العمل وليست المسئولية مجرد الإقرار فإنّ الجزم بالشيء لا يعطي صفة المسئولية وإنما يجد المتحسس بها أنّ هناك واجبات لا بدّ من الانقياد إليها بغض النظر عن النتائج، فإنّ إنقاذ الغريق مما يشعر الشخص بالمسئولية في إنقاذه إذا كانت له القدرة على الإنقاذ وإنّ دفع الظلم ممن له القدرة على دفع الظلم يجب على ذلك الشخص أن يدفع عن المظلوم وهو مسئول عن الترك، فالمسئولية تختلف بلحاظ الأفراد وبلحاظ المجتمعات([1]).

ويعرف عقلة المسئولية بأنها: "هي إقرار المرء بما يصدر عنه أفعال واستعداده لتحمل نتائج التزاماته وقراراته واختياراته العملية من الناحية الايجابية والسلبية أمام الله وأمام ضميره وأمام المجتمع". ومن مميزات المسئولية الشمول لكل الناس والأعمال، وأنها تقوم على الحرية، وتفترض العقل السليم، وتقوم على المعرفة.([2])

وقيل:المسئولية حالة يكون فيها الإنسان صالحا للمؤاخذة على أعماله وملزما بتبعاتها المختلفة.

## المطلب الثالث

## تعريف المسئولية في الفكر الوضعي

أرتبط مفهوم المسئولية بفكرة العدل والأخلاق والمساواة والنظام الاجتماعي تاريخيا، عند معظم الفلاسفة وعلماء الاجتماع وكل منهم نظر إلى المسئولية من الناحية الاجتماعية والإنسانية فقط دون النظر عن الجانب الديني الذي يرضي الله بهذا العمل لذلك نجد ان كلا منهم عرفها بتعريف خاص به ولكن من منطلق تخصصه ومجاله الذي يبحث فيه.

يرى العالم ماكوين أن مفهوم المسئولية: ارتبط تاريخيا في العديد من الدول الأوربية بالتكيف مع الوضع القائم وبما يأمر به الملك أو الإمبراطور حتى يكون مستحقا الثقة ويكون عرضة للمحاسبة الأخلاقية.

---

[1] ) علم الأخلاق النظرية والتطبيق،المؤلف: الخاقاني(محمد محمد طاهر آل شبير)،الناشر: بيروت:منشورات دار ومكتبة الهلال،تاريخ النشر: 1987م،(ص141).

[2] ) النظام الأخلاقي في الإسلام،المؤلف:محمد عقلة،ص(112)مرجع سابق.

كمنا يعرف ديوي المسئولية على أنها:نزوع الفرد إلى التفكير المسبق في النتائج المحتملة لأي خطوة مقترحة وقبول هذه النتائج عن قصد..

ويقول البعلبكي: إنها تعني شخص مجيب او حساس أو سريع الاستجابة.

وقد ربط الفيلسوف الوجودي سارتر المسئولية الاجتماعية بالحرية وأن الإنسان طالما أنه حر فهو يتحمل مسئولية أفعاله مسئولية كاملة لأنه بدون المسئولة تصبح الحرية فوضى ودمار على المجتمع،لذلك الحرية الكاملة تستتبع المسئولية الكاملة.

كذلك هناك فلاسفة ربطوا المسئولية بمسألة الإلزام والالتزام، فبعضهم يرى أن مصدر الإلزام الخارجي يرتبط بالمسئولية،أي أن الفرد الذي يقوم بسلوك معين يتحمل نتائجه أمام المجتمع وفق القوانين المكتوبة او غير المكتوبة(العادات والتقاليد)كما أنه مسئول عن تنفيذ التكليفات والأوامر الإلهية طالما أنه حر.

أما الالتزام فهو نابع من داخل الفرد بدون أيه قيود ولا تكون مفروضة عليه، وقائمة على الاختيار الحر الصادق من الخارج وهي تعني مسئولية ذاتية وأخلاقية([1])

الملاحظ في كل التعريفات السابقة سواء كانت عربية أو أجنبيه أنها كلها تلزم المسئولية المجتمعية بالجانب الدنيوي فقط، وكل همها أن يكون ذلك الدافع هو الإنسانية وفقط.

وهذا لا بأس بالنسبة لقوم لا دين لهم، ولكنها من هذا المنطلق يعتريها القصور لأنها سترتبط في هذه الحالة بالأمزجة ويتدخل فيها الحب والكره ويسيطر عليها المنافع وتخرج من الهدف الذي وضعت له إلى أغراض شخصية بجانب أنها إذا حدث اختلاف بين الأشخاص تتوقف على الفور وهذا ما يرفضه الإسلام كلي وجزئي كما سنرى في الفرق بين المسئولية في الإسلام والأفكار الوضعية.

## المطلب الرابع

## معنى المسئولية في الإسلام

لم ترد كلمة مسؤولية في كتب الأقدمين بالمعنى الذي استُعملت فيه حديثًا، وإن كان معناها شائعًا عندهم بمعنى(الأداء)، وهي: صلاحية الإنسان لأن تعتبر أقواله وأفعاله.

[1] )قدرية إسماعيل:ص45.

قال السرخسي -رحمه الله- في أهلية الأداء: "هذه الأهلية نوعان: قاصرة وكاملة؛ فالقاصرة: باعتبار قوة البدن وذلك ما يكون للصبي المميز قبل أن يبلغ أو المعتوه بعد البلوغ؛ فإنه بمنزلة الصبي من حيث إن له أصل العقل وقوة العمل بالبدن، وليس له صفة الكمال في ذلك حقيقة ولا حكمًا، والكاملة: تبتنى على قدرتين قدرة فهم الخطاب وذلك يكون بالعقل وقدرة العمل به وذلك بالبدن. ثم يبتنى على الأهلية القاصرة صحة الأداء، وعلى الكاملة وجوب الأداء وتوجه الخطاب به؛ لأن الله تعالى قال:{لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [1]. وقبل التمييز والتمكن من الأداء لا وجه لإثبات التكليف بالأداء لأنه تكليف ما لا يطاق وقد نفي الله تعالى ذلك بهذه الآية".[2]

فيفهم من قول السرخسي: "ثم يبتنى على الأهلية القاصرة صحة الأداء وعلى الكاملة وجوب الأداء وتوجه الخطاب به" أن الطفل غير المكلف بالمسؤولية -أي من ليست له أهلية أداء- قد يقوم بالمسؤولية على أتم وجه، وهذا كثير مشاهد، وهو ما لا تمنعه الشريعة، ولكن لا توجبه عليه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "رفع القلم عن ثلاثة؛ عن النائم حتى يستيقظ، وعن المبتلى حتى يبرأ، وعن الصبي حتى يكبر".([3])

كما أن أناسًا وجب عليهم القيام بالمسؤولية فضيعوها ولم يؤدوا الواجب الذي أداه بعض من لم يكلف به. ومن التعريف السابق للمسؤولية -المتعارف عليها بأهلية الأداء- نرى أن من تصرف كما ينبغي أن يتصرف من أناط بهم الشارع المسؤولية (أهلية الأداء) -بأن اعتبر أقوالهم وأفعالهم وأنفذ أثرها- فقد تصرف بمسؤولية، ومن لم يتصرف كما ينبغي أن يتصرف من أناط بهم الشارع أهلية الأداء فقد تصرف بغير مسؤولية. ويفهم أن من تصرف بغير مسؤولية مع إناطتها به فإنه محاسب على تخليه عن المسؤولية وسوء تصرفه فيها؛ لأن تركه للمسؤولية وتفريطه فيها لا يعفيه منها.

بعض الأمثلة لورود المسؤولية في القرآن:

---

[1])سورة البقرة:256.

[2]) أصول السرخسي، المؤلف: محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي (المتوفي: 483هـ) الناشر: دار المعرفة – بيروت(ج2/ص340).

[3] ) أخرجه أبو داود، 544/2، (4398)، والترمذي، 32/4، (1423)، والنسائي: 156/6،(3432)، وهو في صحيح سنن أبي داود برقم(4401)

لم ترد كلمة مسؤولية في القرآن والسنة بهذا اللفظ، ولكن ورودها في القرآن بمعناها كثير جدا، بل المسؤولية من أكثر المعاني تكررًا في القرآن على الإطلاق، فالشرع الحنيف يعد كل ما يجب على العبد أداؤه تجاه خالقه، أو ما يجب عليه أداؤه تجاه نفسه، أو ما يجب عليه أداؤه تجاه بني جنسه، بل ما يجب عليه أداؤه تجاه غير بني جنسه من الدواب وغيرها – مسؤولية وهاي بعض الأمثلة.

لقد قررها القرآن في آيات كثيرة، فقال تعا{أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ}([1])

وقال تعالى:{أَيَحْسَبُ الإنسان أَنْ يُتْرَكَ سُدىً}([2])

وقال تعالى:{هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}([3])

1) وردت المسؤولية بلفظ الأمانة؛ قال الله تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}([4])

2) فهذه الآية تدل على المسؤولية بمعناها العريض، فقد جاءت عبارة الأمانة في هذه الآية بمعنى المسؤولية تماما.

3) قال الله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}([5])

4) وفي هذه الآية سمى الله تعالى التقصير في تحمل المسؤولية –الأمانة- بالخيانة وهذا كالاستعمال في الآية السابقة.

5) قال الله تعالى:{إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا}([6]) ، ورد في هذه الآية التصريح بمسؤولية الإنسان عن جوارحه، فهو محاسب على ما اجترح بها.

6) قال الله تعالى: {وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا}([1])

---

[1] ) سورة المؤمنون: 115.

[2] ) سورة القيامة:26.

[3] ) سورة الجاثية:29.

[4] ) سورة الأحزاب: 72.

[5] ) سورة الأنفال: 27.

[6] ) سورة الإسراء: 36.

7)هذه الآية تدل على مسؤولية الإنسان عما يقطعه على نفسه من العهود ويلزم به نفسه من المواثيق مع الآخرين.

8)قال الله تعالى: {وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}([2])

9)وفي سورة يوسف: {وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ}([3])

10) فهذا المؤذن الذي انبعث إلى إخوة يوسف يخبرهم أنه فقد صواع الملك وأنه يتهمهم بسرقته، ثم بين لهم أن رده من مسؤولياته التي لا يصح أن يفرط فيها.

11) قال الله تعالى: {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ}([4])

12) قال السدي: "فلنسألن الأمم: ما عملوا فيما جاءت به الرسل؟ ولنسألن الرسل: هل بلغوا ما أرسلوا به؟([5]) فهذه الآية تدل على أن المحاسبة على المسؤوليات تعم الرسل والمرسل إليهم كل حسب ما ألقي عليه من التبعات والمسؤوليات.

وقد سبقت الإشارة إلى أن المسؤولية من أكثر المعاني تكرارًا في القرآن، فما ذكر ما هو إلا أمثلة لورود معنى المسؤولية في الكتاب العزيز.

إن تربية الإحساس بالمسئولية والشعور المستمر بها من الركائز الأساسية في الدين الإسلامي، ويمكن أن نعرف الإنسان المسلم بأنه إنسان مسئول لأن المسئول هو الشخص الذي يتحمل بصفة مستمرة وبوعيه الكامل نتائج أعماله وتصرفاته، والمسلم مسئول عن كل خطوة وحركة وعمل أمام الله سبحانه وتعالى أولاً، ثم أمام نفسه ومجتمعه، وعلى مدى التزاماته بمسئولياته، أو عدم التزامه بها، يكون جزاؤه عند ربه إن خيراً فخير وإن شراً فشر. والمسئول أطلق عليه الرسول كلمة الراعي في الحديث:" كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته...."([6]).

---

[1] ) سورة الإسراء:34.

[2] ) سورة النحل: 93.

[3] ) سورة يوسف:جزء من اية72.

[4] ) سورة الأعراف: 6.

[5] ) جامع البيان فن تأويل آي القرآن،المؤلف : محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري(310224هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر الناشر، الطبعة الأولى، مصر، مؤسسة الرسالة، سنة الطباعة:1420 هـ - 2000م(ج5/ص430).

[6] ) (هذا الحديث سيتكرر معنا كثيرا لأن موضوع المسئولية كله يدور في محوره)

والمسئولية بهذا المعني تشمل كل أفراد المجتمع، ممن توفرت فيه الأهلية للتكليف والوعي بنفسه وبواجباته في الحياة، كما يتضح من الحديث السابق أن مسئوليات الإنسان لا تقتصر على نفسه بل تتدرج هذه المسئوليات باعتبارات مختلفة، باعتباره حاكماً، أو رب أسرة، أو فرداً في الجماعة.

وينظر الإسلام إلى المسئولية من زوايا متعددة ذاتية وجماعية وأخلاقية ومجتمعية، ولهذا فقد كانت المسئولية ثقيلة على الإنسان في أمانة التكليف فقال تعالى:{إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً}([1])

إن الشعور بالمسئولية من أنجح الوسائل، وأفضل الأساليب في تقويم حياة الإنسان، وبناء شخصيته بناء يرتكز على الإيمان بالله عز وجل.فقال تعالى{فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ}([2])

وقال تعالى:{وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً}([3])

والإسلام صريح في إقرار المسئولية لقوله تعالى:{كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ....}([4])

وحينما يقرر الإسلام مسئولية الفرد عن أعماله فإن ذلك يؤكد أن الإنسان حر مسئول.

وعلى ذلك، فالمسئولية في الإسلام ليست مسئولية الضمير، أو مسئولية القانون، إنما هي مسئولية الإنسان أمام الله مباشرة، وهي مسئولية لا تقف عند الحدود الظاهرة من الأقوال والأفعال فحسب، بل تتناول النوايا وما تخفي الصدور، فالله عليم بكل شيء ولا يغيب عنه صغيرة ولا كبيرة والإنسان مسئول عن نواياه، قال رسول الله:"إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى".([5])

وهذا يدل على أن صحة الأعمال متعلقة بالنيات، فإن انتفت النية انتفي العمل، بمعنى أنه غير معتبر شرعاً. فقد يعجز الإنسان عن عمل الخير الذي يصبو إليه، لقلة ماله أو

---

[1] ) سورة الأحزاب:72.

[2] ) سورة الحجر:92.

[3] ) سورة الإسراء:13.

[4] ) سورة المدثر:38.

[5] ) البخاري (166/2) ومسلم(132/5)وأصحاب السنن الأربعة.

لضعف صحته، ولكن نيته توصله إلى مراتب العاملين المخلصين. وإذا خلا العمل من النية الخالصة لله وحده أصبح وبالاً على صاحبه، فإنما يحصل الإنسان أجر ما عمله لله وحده بلا رياء ولا سمعة.([1])ومع ذلك فالمسئولية لها درجات، فالعاجز عقلياً أو جسمياً غير مسئول إلى حد ما، وعدالة الله وسعت كل شيء، وهي أكبر من أن ترهق الضعيف بضعفه، والعاجز بعجزه. ولذا فقد أناط الإسلام التكليف بالاستطاعة، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى:{لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ...}([2])

وقصة أصحاب الغار لا تخفي على غالبية الناس، وهم ثلاثة رجال كانوا في سفر، ودخلوا غار لأخذ قسط من الراحة، وبينما هم بداخل الغار، أغلقت صخرة كبيرة فتحة الغار عليهم، وتوسل كل منهم بأعماله الصالحة المخلصة لله تعالى حتى ينجيهم الله مما هم فيه، واستجاب لهم ربهم، وانفتحت الصخرة وخرجوا، بفضل الله ثم أعمالهم الصالحة المخلصة لوجه تعالى.

وكل فرد في الإسلام مسئول عن نفسه وعن جوارحه وعقله وصحته وماله ووقته وعلمه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه".([3])

الفرد في الإسلام أيضا مسئول عن الآخرين عملا بقول الرسول:"من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم".([4])، وقوله صلى الله عليه وسلم:"من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور أجر فاعله ولا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً ".([5])

ويضع القرآن الإنسان أمام مسئوليته الكبرى عندما يجعله خليفة في الأرض، ومسئولية الخلافة في الأرض هي مسئولية الرعاية لكل ما استخلف الإنسان فيه، فقال تعالى: {وَإِذْ

---

[1] ) الإسلام ومبادئ الأخلاق:سفيان بن سالم دارمي.

[2] ) سورة البقرة:286.

[3] ) صحيح الترغيب والترهيب برقم(126)

[4] ) صحيح برقم الحديث:310،ص480.

[5] ) صحيح سنن أبي داود، كتاب الأدب والاستئذان والصلة، رقم الحديث( 4278)

قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}([1]) ويجمل الرسول المسئولية بقوله: " ألا كلكم راع..".([2])

ويتضح من الحديث النبوي أن مسئولية الرعاية موزعة في الجماعة بلا استثناء، فكل عضو مهما كان موقعه مسئول تجاه نفسه وتجاه مجتمعه وهو راع ومسئول عن رعيته. فالمسئولية في الإسلام تحمل طابع الشمول والعموم، من مسئولية الحاكم والعالم والفرد والمرأة والخادم، وأما مسئولية الحاكم فهي أعظم المسئوليات من حيث إقامة الحدود والحكم بما أنزل الله، والعدل بين الرعية، والسهر على مصالحها، والعمل على إسعادها، ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب.([3])

وقد وجه الإسلام أبناءه إلى ضرورة الانتماء للجماعة وتحمل مسئولياتها والمشاركة في تبعياتها، بحيث يشعر الفرد بأنه جزء من الجماعة، وهو عضو من أعضائها، أو خلية من خلاياها، مع شعوره بأنه محتاج إليها. وأن يحافظ عليها ما لم يقدم هو من نفسه للجماعة أثمانه، فثمن محبة الآخرين بإكرامهم، وبالتضحية من أجلهم...وترسيخاً للمسئولية ووحدة جماعة المؤمنين شبه الرسول المؤمنين بالبيان:"المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً". وشبك بين أصابعه.([4]) في هذا الحديث تصوير حسي لإبراز تماسك جماعة المسلمين، وأنهم كتلة واحدة وبناء متشابك كل في مسئول عن الآخر.

ومن علامات حرص الإسلام على القيام بالمسئولية المشتركة، اعتبر رسول الله أن إيمان المؤمن لا يكتمل حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه فقال:"لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه".([5])

---

[1] ) سورة البقرة:30.

[2] ) المسئولية الاجتماعية والشخصية المسلمة – دراسة نفسية تربوية، بتصرف.المؤلف:د.سيد أحمد عثمان،الناشر مكتبة الانجلو،سنة النشر:1979م.

[3] ) المسئولية في الإسلام، مجلة هدى الإسلام – فلسطين، – 48.السنة العاشرة، العدد5 ، ص47 )منار العز

[4] ) صحيح البخاري، كتاب الأدب(78)، باب (36)، حديث رقم:6026، ص 164)

[5] )البخاري برقم(12)كتاب الإيمان باب: من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه.ومسلم

وهذه المحبة تجعل الإنسان لا يطمع بحقوق الآخرين، ولا يكره لهم الخير، ولا يعتدي على حقوق الآخرين أو أعراضهم، وبالتالي تسهم في تعزيز الإحساس بالمسئولية الاجتماعية نحو الآخرين.([1])

كما أمر الإسلام المسلمين بالتعاون وتكوين مجتمع موحد متكامل متعاضد كل يقوم فيه بمسئوليته على الوجه الأكمل، فقال تعالى: {.....وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ الله إِنَّ الله شَدِيدُ الْعِقَابِ}([2])

إذا كانت المسئولية في الإسلام تشمل كل مناحي الحياة فهي أيضا تشمل كل جوارح الأفراد من سمع وبصر وفؤاد وقد حددتها الآية الكريم في سورة الإسراء ولنأخذ بعض الأمثلة.

قال تعالى:{وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً}([3])

الإنسان مسئول عن سمعه، وعن بصره، وعن لسانه، وعن قلبه، وعقله، هل استعمله في طاعة الله أو في محارم الله الأمر عظيم، السمع يسمع الشر والخير، والبصر كذلك، والقلب كذلك يعقل الشر والخير، فمن باب المسئولية على كل مسلم مكلف أن يصون سمعه عما حرم الله، وأن يصون بصره عما حرم الله، وأن يعمر قلبه بتقوى الله، ويحذر محارم الله .

## المبحث الثاني

## شروط تحمل المسئولية

### :وفيه تمهيد وأربعة مطالب:

**تمهيد:**

لكل أمر من الأمور الدينية والدنيوية أسس وشروط لابد من تحقيقها حتى يكون العمل على أكمل وجه وإذا انتفت هذه الشروط كلها أو بعضها فإن العمل لا يكون على الوجه الأكمل كذلك الأمر بالنسبة للمسئولية والتي تعتبر دنيا ودين لابد لها من شروط حتى تتم على أكمل وجه وسأوجز هذه الشروط في أربعة مطالب:

---

[1] ) الأخلاق الإسلامية وأسسها – للأستاذ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني،(ج 192/2)

[2] ) سورة المائدة:2.

[3] ) سورة الإسراء:26.

## المطلب الأول

## الإعلام والبيان

إن الإنسان يجب أن تصل إليه الدعوة، وذلك حتى تستيقظ الضمائر الغافلة، وهذا لا يتم إلا بإعلام الإنسان بما هو مفروض وواجب عليه فعلا أو تركا، بمعنى أن الإنسان لابد أن يكون عالما بما هو مكلف به.

وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يعلم الإنسان وتعلم الأمم بواجباتها وحقوقها عن طريق الرسل الذين يذكرونهم دائما بالأوامر الشرعية من أجل تحقيق المسئولية والالتزام، وقد وردت الآيات القرآنية دالة على ذلك، فما كان الله ليحاسب إلا بعد الإبلاغ والبيان والإعلام، وما كان الله ليعذب أهل القرى دون أن يرسل لهم الرسل والأنبياء لدعوتهم إلى التقوى والصلاح وحتى يكونوا شهداء عليهم، يقول الحق تبارك وتعالى:- {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا}([1])

- {وَما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا}([2])
- {وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَها مُنْذِرُونَ*ذِكْرى وَما كُنَّا ظالِمِينَ}([3])

فالقرآن يعلمنا أن أحدًا لن يحاسب على أفعاله دون أن يكون قد أعلم مسبقًا بأحكامها.

وهذا الإعلام يأتي من طريقين مختلفتين: داخلية، وخارجية، فقواعد القانون الأخلاقي في أكثر صورها شمولًا مسجلة بشكل ما في أنفسنا، وليس علينا لكي ندرك مغزاها، سوى أن نستخدم قدراتنا وملكاتنا الفطرية: فنستشير عقلنا، ونستبطن قلبنا، أو نتبع غرائزنا الخيرة. ولما كانت معرفة هذا القانون الفطري في وسع كل إنسان، على تفاوت بين الأفراد، فإن هذه المعرفة تكفي قطعًا لتأكيد مسئوليتنا نحو أنفسنا. ولم تنازع أكثر المدارس الإسلامية تشددًا في أن هنالك نوعًا من المسئولية الشاملة القائمة على هذا التكليف الفطري، فهل يكفي هذا أيضًا لإقرار مسئوليتنا عند الله؟ هنا تفترق المدارس. فعلى حين أن المعتزلة يرون ذلك ويقرونه

---

[1] )سورة الإسراء: 15.

[2] ) سورة القصص: 59.

[3] ) سورة الشعراء:208، 209.

بلا استثناء، وعلى حين أن الماتريدية يوافقون عليه جزئيًا "فيما يتعلق بالواجبات الأولية"، فإن أكثر مدارس أهل السنة ينكرونه مطلقًا.

ويقولون: إننا لسنا مسئولين أمام الله، حتى عن واجباتنا الأساسية إلا إذا أعلمنا بواجباتنا، هو نفسه، وبطريقة خاصة وإيجابية. وهؤلاء المفكرون يتمسكون بحرفية القرآن حيث يقول: {وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ}([1])

ومن المفيد جدًّا أن نبحث عن الأسباب في أن القرآن يضع هذه الشروط المفيدة، فلماذا أوجب الله مطلقًا على نفسه أن يعلم الشعوب بواجباتها بوساطة الرسل، الوسطاء بينه وبينهم؟ ولماذا لم يتركهم لنورهم الفطري وحده؟ والجواب كما يبينه القرآن{لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}([2])

الحقيقة أن الله سبحانه أوجب على نفسه أن يعلم الناس قبل أن يحملهم مسئوليتهم؛ لأنه يرى من الظلم تعذيب القرى التي تغفل عن واجباتها؛ لأنها لم تعرفها: {ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ}([3])

وقال تعالى:{وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ، ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ}([4])

وقد أكملت السنة النبوية هذا الإيجاز في النص، واستخرجت منه صراحة نتائجه، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن المبتلى "المجنون" حتى يبرأ، وعن الصبي حتى يكبر" يحتلم1. ([5]) إن معنى ذلك أن هذا البيان والإعلام هدفه الأساسي رد الناس إلى الاهتداء بنور الوحي المنزل حتى يصلوا إلى الهداية، فإذا ضلوا كان العذاب الغليظ، وإذا اهتدوا كانوا في سعادة في الدنيا والآخرة. وذلك حتى يكون الجزاء لعمل ناتج عن عمل. وحتى يكون الحساب على أفعال قد علموا مسبقا أحكامها.

---

[1] ) سورة التوبة:115.

[2] ) سورة النساء: 165.

[3] ) سورة الأنعام: 131.

[4] ) سورة الشعراء: 208-209.

[5] ) أبو داود، كتاب الحدود، باب 17، وصحيح البخاري، كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة، باب7، .

## المطلب الثاني

## الالتزام الشخصي

من المسلمات التي لا تحتمل الجدل أن المسئولية شخصية محضة سواء كانت مسئولية فرجيه أو جماعية، وسوف نأكد هذه الحقيقة بذكر بعض الأدلة من القرآن الكريم، تنص على هذه الحقيقة، قوله تعالى: {لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَت}([1])

وقوله تعالى: {وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ}([2])

وقوله تعالى:{مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}([3])

وقوله تعالى:{لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا}([4])

وقوله تعالى:{الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ}([5])

وقوله تعالى:{وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا}([6])

وقوله تعالى:{وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى}([7])

وينتج من هذا كله، بوضوح، أن الثواب والعقاب لا يمكن أن يتأتى فيهما أي تحويل، أو امتداد، أو اشتراك، أو التباس، حتى بين الآباء والأبناء، وإذا كان آباؤنا وأجدادنا مسئولين مثلًا عن الأمثلة التي لقنوها لنا، والعادات التي أخذناها عنهم. وإذا كنا مسئولين عن الطريقة التي استعملنا بها هذه التركة، فلا يجب مطلقًا أن نتحمل معهم وزر ما عملوا:{تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}([8])

---

[1] ) سورة البقرة: 286.

[2] ) سورة النساء: 111.

[3] ) سورة الإسراء: 15.

[4] ) سورة لقمان: 33.

[5] ) سورة غافر:17.

[6] ) سورة الأحقاف:19.

[7] ) سورة النجم:39.

[8] ) سورة البقرة: 134 و141.

وهكذا محيت بجرة قلم صعوبة الخطيئة الأصلية. فالقرآن لم يرفض فقط أن تنسحب خطيئة الإنسان الأول على كل الناس، ولكن هذه الخطيئة -في القرآن- لا ترتدي هذه الصفة الدنيوية، التي تخصها بها الديانة المسيحية. فإن آدم لم ينقد للخطيئة لخبث في طبيعته، أو سوء في إرادته وليس يكفي أيضًا أن يقال: إنه انقاد لإغراء قوي، بل يجب أن نضيف – تبعًا للقرآن- أن هذا الإغراء لم يكن في جوهره ذا طابع مادي، فإن جدّنا الأول قد خدعته كلمات عدو أقسم له تأكيدًا لكلامه، وزعم أنه ينصحه قال تعالى:{وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ}([1])

ويا لها من غلطة نبيلة!! فمن ذا يطيق ألا يبالي بمثل هذا إذا كان ملتزمًا بأوامر الضمير؟ ولكنه الوهم الكاذب الذي زينه لعينيه ذلك الناصح المنافق. وعلى الرغم من أنه كان منذ البداية محصنًا ضد المكائد المحتملة من عدوه، فقد نسي الإنسان الأول، وجاءت اللحظة التي لم يجد لنفسه فيها إرادة صامدة قال تعال: {وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا}([2])

ومع ذلك فهذا النسيان لا يعتبر بالنسبة إليه عذرًا مقبولًا، كما أن النية الطيبة لا تشفع له كذلك؛ لأن النسيان لم يكن للأمر في ذاته، بل للهدف منه، وأيًّا ما كانت الدوافع النبيلة وراء المخالفة، فإنها لا يمكن أن تعرينا من التزام مطلق واضح المعالم والحدود. وفي هذا النوع من الأمر الحتمي تظهر بوضوح متانة الصرامة التي لا تسمح بأي استثناء يرد على القاعدة الأخلاقية.

فخطيئة آدم كانت إذن أثرًا من آثار ضعف عارض، وجهد قاصر في مراعاة الواجب. ومن هنا لم تفسد فطرة الإنسان الأول، بحيث تستلزم تدخل "مخلص" غيره نفسه، إذ كان يكفيه أن يعترف بخطيئته، ويظهر ندمه، لا ليغسل دنسه، وتعود إليه سريرته النقية، كما كانت فحسب، ولكن ليربي هذا التائب الجديد، ويرفع إلى درجة المصطفين الأخيار، قال:{ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى}([3])

---

[1] )سورة الأعراف: 21.

[2] )سورة طه:115.

[3] ) سورة طه:122.

والفطرة الإنسانية ليست على خلاف ذلك، بصفة عامة، حتى إن القرآن يصفها فيقول:{لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ}([1])إن القرآن ليصور لنا أخذ البريء بالمذنب، لا على أنه مضاد للشريعة فحسب، بل هو كذلك غير متوافق مع الفكرة الأساسية للعدالة الإنسانية قال تعالى:{قَالَ مَعَاذَ الله أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ}([2])

ومع ذلك فإن في الكتاب حالتين يبدو أنهما قد خرجتا على مبدأ المسئولية الفردية، فقد قيل –من جانب–عن بعض المذنبين: إنهم{وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِم}([3])

وقيل من جانب آخر: إن ذريات المؤمنين سوف يعاملون كما يعامل أجدادهم، بشرط أن يكونوا مؤمنين، وذلك قوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ}([4])

وإذن فلن يكون الثواب والعقاب تبعًا للجهد الفردي فحسب، بل قد ينشأ كذلك من عمل الآخرين. ولا شك أن هذين المثالين جديران بالدراسة، حتى نرى إلى أي مدى يمكن أن يضعفا أو يدعما المبدأ العام.

وأول ما نبدأ به أن نزيح فكرة معينة، هي أنه ليست المسألة هنا مسألة تحويل كلي يحرم به الفرد الرئيسي في المسئولية من ثمرة جهوده، أو يبرأ من نتائج عمله السيئ، هيهات أن يحدث هذا.

والنصوص التي عالجت هاتين الحالتين لم تكف عن تأكيد هذا الواقع.

إن ثواب صاحب العمل وعقابه لا يمكن أن ينقص بهذا قال:{وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ}([5])

وقال تعال:{وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ}([1])

---

[1] ) سورة التين: 4-6.

[2] ) سورة يوسف:79.

[3] ) سورة العنكبوت: 13.

[4] ) سورة الطور: 21.

[5] ) سورة الطور:21.

فالمسئوليات الفردية تبقى إذن كاملة، وتلك نقطة مفروغ منها. وكل ما في الأمر أن تذييلًا للثواب والعقاب يأتي -فيما يبدو- من خارج فضلًا عما ينتج من العمل الفردي.

ولكن برغم تحديد المسألة على هذا النحو، فلا يزال هناك نوع من التعارض، مع النصوص الكثيرة التي تنكر -فيما رأينا- إنكارًا مطلقًا، أن ينسب للإنسان ما ليس من عمله.

فما وجه الحقيقة في هذه المسألة؟

لئن كان النص المذكور آنفًا لم يذكر الظروف التي تتم فيها هذه الإضافة، فإن نصًّا آخر يخصصه ببعض المتكبرين الذين أداروا ظهورهم للهدي الإلهي، وسعوا في إضلال الآخرين. وهؤلاء الأشخاص -فيما يحدث القرآن- سوف يتحملون المسئولية الكاملة عن أعمالهم الخاصة، ويشاركون في مسئولية هؤلاء الذين أضلوهم قال تعالى{لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ}([2]) فما معنى هذا، إن لم يكن أنهم مسئولون عن الجرائم التي دعوا إليها، مسئوليتهم عما ارتكبوا؟ ونكرر كذلك أن ضحاياهم لن يعفوا مطلقًا من خطيئتهم، التي هي استسلامهم للضلال. وقد أنذرنا القرآن في مواضع كثيرة بأن عبء الأتباع لن يصير أقل ثقلًا، وهو يعبر عن هذه الحقيقة في شكل مناقشة تنشب يوم القيامة بين طائفتي المذنبين، وهي مناقشة يبقى مبدؤها وحلها دائمًا ثابتًا لا يتغير: فالضعفاء الذين يريدون أن يتبرءوا من خطاياهم يلقونها على هؤلاء الذين أوقعوهم في الضلال، على حين أن هؤلاء يبتعدون عنها ويتنصلون منها، وتنتهي المناقشة دائمًا بإدانة الطرفين. {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ *وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ}([3])

ولقد أعلن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- أن مسئولية صاحب العمل المبتدع سوف تتضاعف بقدر ما يحتذي الناس مثاله خلال القرون المقبلة، إلى يوم القيامة، قال:(من سن في الإسلام سُنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم

---

[1] ) سورة العنكبوت: 12.

[2] ) سورة النحل:25.

[3] ) سورة البقرة166-167.

شيء، ومن سَن في الإسلام سُنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء).([1])

وكذلك قال فيما رواه عبد الله بن مسعود: (ليس من نفس تقتل ظلمًا، إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها).([2]) وذكر رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قوله تعالى مؤكدًا هذا المعنى: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ الناس جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا الناس جَمِيعًا}([3])

بل إن الأمر ليذهب إلى أبعد من هذا!! فلن نسأل عما قدمت أيدينا فحسب، بل سوف نسأل أيضًا بصورة ما عن تصرفات الآخرين، فنحن مسئولون عن انحراف مسلك أقراننا، حين نتركهم يسيئون دون أن نتدخل بجميع الوسائل المشروعة التي نطبقها، لنمنعهم من الإساءة. وشبيه بهذا أن العمل الاجتماعي السلبي، أو عدم المبالاة –تجرم بنفس درجة العمل الإيجابي فالامتناع هو المشاركة السلبية في الجريمة.

وإن القرآن ليحدثنا أن شعبًا قديمًا قد تعرض للعنة على ألسنة الأنبياء، وكان كل ذنبه – حتى يستحق هذه اللعنة– أن المجتمع لم ينكر على بعض أعضائه فعلهم للشر. فقال:{لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ، كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ}([4])

وتتسم المسئولية في الإسلام بأنها ذات طابع شخصي فردي خالص، ونجد كثيرا من الآيات القرآنية الدالة على ذلك:{لا يُكَلِّفُ الله نَفْساً إِلَّا وُسْعَها لَ[5]ها ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ} (3)

– {وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى}([6])

---

[1] ) مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري، حديث رقم(533)

[2] ) البخاري، كتاب الاعتصام، باب 15.

[3] ) سورة المائدة: 32.

[4] ) سورة المائدة: 79.

[5] ) سورة البقرة: 286.

[6] ) سورة النجم: 39.

فالإنسان مسئول مسئولية كاملة عما يصدر عنه من أفعال، وعلى ذلك يأتي الثواب والعقاب. فمسئولية كل فرد واضحة جلية عن العمل الذي يقوم به سواء كان هذا العمل من أجل نفسه أو من أجل الغير إذ هو لا يتحمل تبعة عمل إنسان غيره، ولكنه مسئول عن الطريقة التي أتى بها هذا العمل أو ذاك بعد أن علم وتعلم سبل الخير والشر.إلا أن هذه المسئولية الفردية لا تمنع الفرد أن يكون مسئولا عن انحراف مسلك أقرانه، فعليه أن يتدخل بوسائل مشروعة ليمنع الجماعة من التمادي في الأعمال التي تضر المجتمع الإسلامي، وهنا تتحول المسؤولية إلى مسئولية ذات طابع جماعي، حيث إن هذه الجماعة ما هي إلا مجموعة الضمائر التي تربت في أحضان المدرسة الإسلامية الحقه. فأوجدت المجتمع المتكافل والمتعاون الذي يعمل من أجل الخير والسلام.([1])

## المطلب الثالث

## النية (القصد)

وهذا الشرط يتعلق بعلاقتنا بالعمل، وهذه العلاقة علاقة إرادة، فبعد المعرفة والإعلام، والذي أنتج الطابع الشخصي للمسئولية، فإن هناك مركزا داخليّا في النفس الإنسانية تصدر عنه إرادة العمل، أو النية، حيث يتبنى الإنسان الفعل أو يحققه ويؤكده من داخله، والإنسان ليس بما يفعل، فحسب بل بما يرغب فيه بشغف، وبدون ذلك يصبح عمل الإنسان آليا، ومجرد صدفة في العالم الذي يعيش فيه، فالأخلاق الحقيقية ينصب اهتمامها على النية أن تريد وأن تعمل، وذلك أمر إنساني فبالإرادة والعمل ينتهي مجال الأخلاق، أما النتائج والمعطيات فهي أمور بيد الله تعالى.

ولعله من المهم الإشارة إلى أن الإنسان غير مسئول عن الأعمال اللاإرادية للإنسان حيث يفتقر إلى الإرادة، ولا هو مسئول عن الفعل الخطأ غير المقصود أو المراد وذلك لعدم استهدافها الشر أو الخطأ. فالإنسان لا يحاسب على عمل إلا إذا توافر القصد الكامل له. وهذا مصداق قوله سبحانه وتعالى: {وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فِيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ}([2])

---

[1] )الأخلاق السياسية في الفكر الإسلامي للعربي،ص221،220.ودستور الأخلاق للقرآن، ص155.مراجع سابقة.

[2] ) سورة الأحزاب: 5.

وهكذا يظهر دور النية في الأخلاق الإسلامية باعتبارها شرطا ضروريا، وعلى ذلك هي شرط للمسئولية، ومصداق هذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنما الأعمال بالنيات»([1]) ويفيد الحديث أن الأعمال لا قيمة لها إلا بالنية، وأن الأعمال بنياتها، وعلى هذا فالأعمال لا توجد «أخلاقيا» إلا بالنية، وهذا يؤكد وجود النية كشرط لقيمة الفعل الخلقي([2])

لقد رأينا أن المسئولية لا يمكن أن تثبت أو تسوغ في نظر القرآن إلا بشرط أن تذيع شريعة الواجب، ويعرفها كل ذي علاقة بها، وأن تكون حاضرة في عقله لحظة العمل.

ولكنّا، فضلًا عن علاقتنا بالشريعة، لنا علاقة أخرى بالعمل، فالأولى "علاقة معرفة"، وهذه "علاقة إرادة". والضمير الكلي للفرد الأخلاقي يحتوي هذه العلاقة المزدوجة في آن، ومثله كمثل الفنان الذي يرسم شجرة وهو ينظر إليها، سواء في مطابقته لها، أو في استقلاله عن قواعدها. وعليه، فإن المحكمة التي تهتم بأن تنسب أعمالًا إلى أشخاص لا تستطيع أن تصدر في هذا حكمًا عادلًا دون أن تلاحظ الطريقة التي تقع بها أعمالنا، وعلاقتها بشخصنا.

فالعمل اللاإرادي يجب أن يستبعد –بادئ ذي بدء– من مجال المسئولية، من حيث كان ينقصه مطلقًا هذا المطلب التكويني للشخصية. أعني: الإرادة، فالذي يكبو في سيره –مثلًا– لا يمكن أن يعتبر مسئولًا، لا عن سقوطه، ولا عن نتائجه المكدرة أو المستطابة، بالنسبة إليه أو إلى الآخرين.

لأن هذه المسئولية ليست مجرد نسبة العمل إلى الإنسان بصفة عامة، بل لا بد من وجود صفة مميزة، وهي أن هذا العمل يؤدي إلى استحقاق من الثواب أو العقاب.وعليه، فمن الضروري لكي نخلع على أي عمل هذه الصفة، أن يكون هذا العمل الإرادي متصورًا من ناحية صاحبه بنفس الطريقة التي تصوره بها المشرع..وعندما يقول القرآن: {لا يُؤَاخِذُكُمُ الله بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ}([3]) نتساءل: ماذا يقصد بهذه الأيمان؟أما المفسرون فقد جاءوا في هذا

[1] ) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، المؤلف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، الطبعة الأولى، بيروت ـ لبنان، الناشر: دار المعرفة، سنة الطباعة:1379هـ. (ج1/حديث رقم (1).

[2] ) الأخلاق السياسية، ص(220، 221) وابن حجر: فتح الباري، (ط الشيخ بن باز، ج 1، ص 20، 21).

[3] ) سورة البقرة: 225 وسورة المائدة 89.

الصدد بتعريفين مختلفين تمامًا، يقول ابن عباس في جمهرة من المفسرين: "هو ما يجري على اللسان في درج الكلام والاستعمال، لا والله، وبلى والله، من غير قصد لليمين"، ولكنّ مالكًا يرى أن التفسير الأفضل الذي تمسك به دائمًا هو الذي يحدد هذا النوع من الأيمان على أنه: "حلف الإنسان على الشيء يستيقن أنه كذلك، ثم يوجد على غير ذلك، فهو اللغو".([1]) ولسنا نريد أن نختار أحد هذين التعريفين، فنحن نعتبرهما كليهما حالتين خاصتين، في نطاق القانون العام لعدم المسئولية، ولو أننا قابلناهما بالنص لوجدنا أن التعريف الأول يتفق بصورة أفضل مع آية سورة المائدة، حيث توضع الأيمان الخفيفة في مقابل الأيمان المؤكدة: {لا يُؤَاخِذُكُمُ الله بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ}، على حين أنها في سورة البقرة تقابل الأيمان التي ينشئ الحنث فيها ضررًا متعمدًا: {وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ}. وهكذا ينتج من مجموع النصين أن العمل "الإرادي"، الذي "انعقدت عليه النية" وحده هو الذي يستتبع مسئوليتنا.

## المطلب الرابع

## حرية الاختيار

حين تتحقق شروط المعرفة والعمل الإرادي على بصيرة من الفرد بما يعمل، فليس معنى ذلك أن العمل قد استوفي جميع شروط المسئولية، إذ أن هناك شرطا آخر على درجة من الأهمية، وهو القدرة وفاعلية الجهد الإنساني، أو بتعبير آخر: الحرية. ويؤكد دراز على ذلك بقوله: «إن مبدأ التناسب بين المسئولية والحرية تمتد جذوره بعمق في الضمير الإنساني، بحيث لا يمكن تجاهله دون أن يبدو في موقفنا شيء من الإجحاف.([2])

إن المسلم مطلوب منه استخدام قدرته على الاختيار حتى لا يتخذ من القضاء والقدر ذريعة للتهرب من المسئولية، وقد قلنا إن الإنسان المسئول لابد أن يكون الإنسان مختارا فلا معنى لكون الإنسان مجبرا على شي ء ونحاسبه عليه وإنما يحاسب على اختياراته. إن الإنسان

[1] ) الموطأ للإمام مالك، كتاب الأيمان والنذور، و تفسير البحر المحيط 2/ 179. وقد أثبت آراء أخرى لكل من ابن عباس ومالك. "المعرب".

[2] ) دستور الأخلاق في القرآن،محمد عبد اله دراز، ص 181.مرجع سابق.

يصبح مسئولا، وهو يحقق ذاته بنفسه، وهكذا يصبح مسئولا أمام الله عما آتاه من فعل بإرادته وحريته.

لعله قد تبين أن المعرفة لا تكفي دليلا على تحمل المسئولية، ما لم تصاحبها النية (الإرادة الجازمة) تجاه الخير أو الشر، وهذه الإرادة وحدها- أيضا- لا تكفي، بل لا بد من الاختيار والقدرة والحرية هي الصفة الجوهرية التي تميز الإنسان المسئول في هذه الحالة.

وكما يقرر «دراز»: فالشروط الضرورية والكافية لمسئولياتنا أمام الله وأمام أنفسنا هي: أن يكون العمل شخصيا، إراديا، تم أداؤه بحرية «أي بدون إكراه» وأن نكون على وعي كامل وعلى معرفة بالشرع أو القانون.([1]) وذلك لأنه عندما يكون المرء قد عرف الشريعة، وعمل بإرادة، وعلى بصيرة من الأمر فليس معنى ذلك أنه يكون قد جمع كل شروط المسئولية، فأنا أعرف جيدًا أن هذا العمل محرم علي، ولست أخطئ طبيعته المادية، أو طبيعته الأخلاقية، وحين يتحتم على إرادتي أن تتدخل فإنها تتناوله من نفس الجانب الذي صار به محرمًا. فهو إذن عمل شعوري منبعث عن نية مزدوجة. بيد أنه إذا لم تكن إرادتي وحدها هي التي تحدثه، وإذا لم يكن مجال اختياري الحر خاليًا، كصفحة بيضاء، وكان مشغولًا بقوى أخرى هي التي حددت اختياري في اتجاه معين دون أي اتجاه آخر، وإذا لم يكن لإرادتي –وهي تواجه هذا التداخل غير أن تتبع تيارًا سبق أن خط لها- فكيف أنسب إلى نفسي عملًا كهذا، لم تسهم فيه شخصيتي إلا في جانب معين؟

ألا يجب علينا –بالإضافة إلى ما قررناه من أهمية ملكات "المعرفة" و"الإرادة" أن نبحث أهمية "قدرتنا" وأن نقرر "أن فاعلية جهدنا"، أي: "حريتنا"، شرط "رابع" في المسئولية؟

إن مبدأ التناسب بين المسئولية والحرية تمتد جذوره بعمق في الضمير الإنساني، بحيث لا يمكن تجاهله.إن من يطالع آيات القرأن الكريم يفهم أن القرآن قد التزم أن يعلن مسئوليتنا أمام الله، في نفس الآيات التي يبدو فيها أنه يلحق الإرادة الإنسانية بالإرادة الإلهية بصورة كاملة. قال تعالى: {يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}([2])

وإذن، فإن مبدأ المسئولية يظل في جميع الفروض مبدأ صحيحًا دون مساس.

---

[1] ) دستور الأخلاق في القرآن، محمد عبد الله دراز مرجع سابق.

[2] ) سورة النحل:93.